الموريسكي... معضلة الهوية ورحلة البحث عن الذات

The Moresque and the Dilemma of Identity in the journey of self-search

د- حنينة طبيش[1,*]

[1] جامعة خنشلة، (الجزائر)، hanina.tabbiche@univ-khenchela.dz

تاريخ الإيداع: 2021/04/26 **تاريخ المراجعة**: 2021/05/18 **تاريخ النشر**: 2021/06/30

ملخص:

إذا كانت الهوية تمثل نسقا من المعايير التي تشكل مجتمعة هوية الذات ووحدتها، وكل انفصال ونفي لواحد من هذه المعايير يؤدّي بالضرورة إلى اغتراب الذات وتشظّيها ما يجعل الذات متململة ومحتارة، لذا فهي تقرّر بوعيها التاريخي تجاوز حالة التململ والحيرة إلى مرحلة جمع هذا الشتات عبر المواجهة والعودة إلى ذلك الشرخ، والكتابة عنه؛ باعتبار الكتابة وجودا مستمرا في الزمان والمكان، وهذا ما تحاول رواية الموريسكي الاقتراب منه عبر الاشتغال على أزمة الموريسكيين التي تقدم عبر شخصياتها نماذج متفاوتة الهشاشة لذا يختار البطل بوعيه التاريخي أن يقترب من هذه الشروخات الهوياتية عبر الكتابة عنها وتخليدها للأجيال القادمة.

الكلمات المفتاحية: الهوية؛ الاغتراب؛ الذات؛ الموريسكي؛ التاريخ.

Abstract:

Considering that identity represents a set of collective standards that constitute the unity of the self, then separating or removing one of these standards necessarily leads to the alienation and fragmentation of the self, which consequently results in a state of restlessness and confusion. Moreover, it is believed that historical awareness about the subject of identity leads the self to move beyond the aforementioned state to the stage of collecting this diaspora through confrontation and understanding, and then write about it. The act of writing is a continuous process that is presented in time and space, and this is what the Moriscos novel attempts to approach by working on the crisis of the Moriscos which is shown through its varied characters differing in fragility, so the protagonist, with his historical awareness, chooses to approach these identity cracks by writing about them and perpetuating them for future generations.

***Key words**: identity; Alienation; Self; Moresque; History.*

*المؤلف المراسل.

تقديم:

تطرح الرواية الأندلسية المغاربية معضلة الهوية كثيمة مهيمنة على النص السردي مشكّلة بذلك تراجيديته مع نوستالجية تحاول لملمة شظايا الذات، واسترجاع بعض من ذلك التاريخ عبر استفزاز الذاكرة ومساءلة الماضي في محاولة فهم خصوصية تلك المرحلة الحرجة والصعبة من التاريخ. وإذا كان بعض الروائيين يرفضون فكرة النوستالجية المريضة القائمة على اجترار ماض لم يعد موجودا فإن آخرين مازالوا يصرّون على الوقوف على هذه الفترة الحاسمة من التاريخ في نوع من الانتصار للسان المنهوب، وعليه تسعى هذه الدراسة إلى تقصّي الهوية المتشظية، في محاولة فهم الذات عبر لملمة شتاتها لفهم الماضي والتاريخ وإعطاء حكم منصف بعيدا عن الذاتية والبكائية التي لم تعد مجدية. وعليه فإن الأسئلة المحورية التي تأسست عليها الدراسة هي: ما هي تجليات الذات المتشظية هوياتيا في رواية الموريسكي؟ وكيف أسهم فعل الكتابة في لملمة شظايا هذه الذات المغتربة؟ كل هذه الأسئلة تجتهد الدراسة للإجابة عنها عبر مقاربة نص "الموريسكي" للروائي المغربي حسن أوريد.

أولا- أزمة الموريسكيين من زاوية تاريخية:

بعد سقوط مملكة غرناطة آخر معقل للمسلمين "وقعت شبه الجزيرة الأيبيرية بأكملها في قبضة ملوك قشتالة وأراجون الموحدة... نشبت مشكلة الأقلية الموريسكية منذ عام 1492م، حتى طردهم الأخير عام 1610م، وهي أقلية لم تكفّ عن التمرد والثورة ومحاولة الانتقام لزوال الحكم الإسلامي، وظلت تدافع حتى الرمق الأخير عن لغتها وعاداتها وبقايا دينها الذي أخذ يتباعد تدريجيا عن مصدره الأصلي، وتنقطع وشائجه شيئا فشيئا عن منابعه الحقيقية حتى صدور قرار النفي الأخير"[1]، وهذه الوضعية أفضت إلى وضع مخصوص أفضى بدوره إلى وضع هوياتي مضطرب ومعقّد قرر على إثره بعض الموريسكيين الهجرة حفاظا على بقائهم أحياء مع الحفاظ على مقومات الهوية الأساسية ألا وهي العقيدة الإسلامية واللغة العربية، في حين رفضت فئة منهم ترك الأندلس وقررت المكوث والبقاء بها مقابل التخلي القسري عن الدين الإسلامي واللغة العربية، "بالإضافة إلى الذين مكثوا، يجب الأخذ بعين الاعتبار أولئك الذين عادوا. فكثيرون ممن كانوا قد أخرجوا عنوة، عادوا ما إن سنحت لهم الفرصة. في حين غيّر آخرون، ممن كانوا قد استقبلوا قرار الطرد بلا مبالاة، أو حتى بسعادة، رأيهم عندما رأوا الاستقبال السيّئ الذي كانوا يخصونهم به في بلاد البربر"[2] وهذا ما جعلهم يقتنعون بأن الأندلس هي مكانهم الحتمي رغم مشاعر الحقد والكراهية التي كان يكنها لهم المسيحيون القدامى ورغم ما يتهدد حياتهم من خطر محدق.

وتروي المصادر التاريخية الحديثة حالة التوتر التي كانت محتدة بين الموريسكيين والمسحيين إذ "غالبا ما كانت المشاعر التي يكنها المسيحيون والموريسكيون بعضهم لبعض، هي الاحتقار والخوف والبغض. لم تكن هذه العداوة تتجلى باستمرار في الحياة اليومية، ولكنها لم تكن تحتاج إلى أسباب كثيرة لتعبر عن ذاتها بشكل عنيف، لدرجة أنّنا نتساءل كيف أن مجموعتين بهذا العناد استطاعتا التعايش معا على أرض واحدة لأزيد من قرن؟ وأيضا، كيف استطاعت المجموعة الأضعف التي تشكّل أقلية، أن تصمد بهده الصلابة وكل هذا الوقت، أمام الهجمات التي كانت تستهدفها، وأن تحافظ، على الأقل، على جزء من هويتها."[3] إن هذا التساؤل المنصف يضعنا أمام حقيقة الأزمة التاريخية التي عاشها الموريسكيون بوصفهم أقلية استُهدفت هويتها وتبدّد شملها فيما بعد، ما أنتج شتاتا من الموريسكيين الذين توزّعوا على مناطق عديدة كفرنسا وإيطاليا تركيا في حين اختار بعضهم

العدوة المغربية؛ لأن الجمهور كان "يمجّد فكرة العيش في بلد يستطيع فيه ممارسة الإسلام بحرّية. غير أن الواقع، لاحقا، سيجعلهم يفتحون أعينهم، وسيهيئ لهم الكثير من خيبات الأمل القاسية"[4] التي ستعمّق هوة الاغتراب وتفضي بالذات إلى التشظي على مستويات عديدة كما سنجلي مكامنه فيما يلي:

ثانيا- تشظي الذات/تشظي الهوية:

إذا كانت الهوية ترتبط بالفرد فإنها تنسحب على الجماعة كذلك؛ فهي مصطلح يطلق "على نسق المعايير التي يعرف بها الفرد ويعرّف، وينسحب ذلك على هوية الجماعة أو المجتمع أو الثقافة"[5] ويأتي في مقدمة هذه المعايير الدّين بوصفه أهم معيار لتحديد هوية الفرد والجماعة؛ وعليه فإن أي اضطراب يصيب هذا المقوم يؤدّي بالضرورة إلى اضطراب الذات وتشظيها واغترابها على مستوى الفردي ثم الجماعي، ذلك أن "الاغتراب الديني هو أساس كل اغتراب فلسفي أو اجتماعي، نفسي أو بدني. فإذا كان الاغتراب هو انقلاب الأنا إلى آخر فإن هذا الانقلاب يحدث أساسا في تحوّل الإنسان إلى الله قبل أن يتحوّل الإنسان إلى عمل أو إلى نظام أو إلى مؤسسة أو إلى كون. فالاغتراب الديني هو أسهل اغتراب وأسرعه وأكثره مباشرة"[6] وهذا الاغتراب الديني هو الذي يؤسس عليه حسن أوريد لتشظيات هوية الذات في روايته "الموريسكي".

إذًا هذه الذات تبدو متشظية بين الداخل والخارج، بين الأنا والآخر، بين الباطن والظاهر، ما يجعلها في حيرة قاتلة: يقول البطل واصفا هذا التشظي الصعب وهذه البينونة الكبرى: "كنا بالبيت مسلمين. كان أمرا عسيرا أن نتظاهر باعتناق المسيحية في الخارج والحفاظ على العقيدة الإسلامية داخل البيت. قد يعتاد المرء على ذلك مع الزمن. لكن الأمر لم يكن يخلو من مخاطر. فمعتنقو المسيحية غير الصادقين كانوا يتعرضون لأسوأ العقوبات من لدن الكنيسة منها مصادرة الممتلكات والملاحقات والمضايقات، بل حبل المشنقة أحيانا. لقد تحدث الخوري أثناء قداس يوم الأحد عن حالة مارية روميرو التي تظاهرت أمام محاكم التفتيش بأنها اعتنقت المسيحية، وتصرفت كمسيحية جيدة، حتى إذا كانت في نزعها الأخير اعترفت أنها ستموت على دين الإسلام. لم تسلم جثتها من الإيذاء فأحرقت. ثم حالة القس المكلّف بتعليم المسيحيين الجدد، ذلك الذي ضبط على حين غرّة ومعه اثنتا عشرة مصحفا. تمت ملاحقته فهرب إلى جبال البشارات"[7]. إن هذا الاغتراب الديني الهوياتي خلق نوعا من الإصرار والتشبث في المرحلة الأولى عند الجيل الأول الذي أخذ الدين من منبعه وعايش سقوط غرناطة بأم عينه، ولعل سبب ذلك يرجع إلى تركيبة الإنسان الدفاعية الفطرية فـ"حين يحس المرء بأنّ ثمة ما يهدّد وجوده، يسرع إلى تأكيد ذاته باحثا عن شيء أصيل كامن في أعماقه، يركن إليه، كي يحسّ الثقة والأمان والقوة لمواجهة الخطر، وبذلك تتشكل الهوية في أعماق الذات، حيث تتجسد عبر انتماءات ومكونات تتعلق بالجنس والعمر والطبقة الاجتماعية والموروث الثقافي، الذي يشكل ركيزة أساسية، مما يجعل الآخر المعتدي، يهتمّ بالقضاء عليها، أي على كل الثوابت التي تشكّل الروح والوعي"[8] هكذا تصبح الهوية ثوابت تشكل الوعي والروح بوصفهما الوجود الحقيقي الذي انكفأت عليه الأقلية الموريسكية -سرا- في محنتها رغم محاولات محاكم التفتيش وجهودها في القضاء عليها.

إن وضع الإصرار هذا يتمظهر جليا عبر شخصية الفقيه قاسم/دييغو الذي بقي محافظا على هذه الهوية/الروح؛ وفي الوقت ذاته يحاول نقل هذا الوعي الروحي لأطفاله الذين لم يعايشوا اللحظة التاريخية التي جعلت منهم مزدوجي هوية أو بالأحرى متشظي هوية. يقول الوالد مخاطبا ولديه: "منذ ثورة البشارات والملاحقة

فظيعة.. لم تكونا قد ولدتما بعد. أنا عشت ذلك التمرد، وقد خلّف فينا أثرا عميقا. فرض علينا أن نغيّر عقيدتنا الدينية. هكذا صرنا ملزمين بإظهار اعتناقنا للدين المسيحي وأن نمارس ديننا خُفية لكي نبقي على حياتنا. لا يتعلق الأمر باختيار بل بضرورة. في صمت تلونا الفاتحة. كنت أتلوها وأنا لا أفهم معناها"[9] إن هذا النص يصف لنا أزمة الموريسكيين الهوياتية كما يضعنا أمام حقيقة الهوية وطبيعتها التي ترتبط أساسا بحيز الحرية المتاحة (فكرة الضرورة والاختيار)؛ ذلك أن الهوية "ليست... موضوعا ثابتا أو حقيقة واقعة بل هي إمكانية حركية تتفاعل مع الحرّية. فالهوية قائمة على الحرية لأنها إحساس بالذات، والذات حرة. والحرية قائمة على الهويّة لأنها تعبير عنها"[10] فمتى ضاقت الحرية انحسرت الهوية وتشظت الذات وفقدت ذلك الإحساس الحر الذي هو بوصلتها في العالم. ومتى أقصيت الهوية انتفت الحرية وتغربت الذات.

إن اغتراب الذات يفضي إلى المساءلة الحرة التي تقود بدورها إلى تمسك الذات بهويتها والالتحام بها كما قد يفضي هذا الاغتراب إلى الانكسار والتشظي. إن النموذج الأول يمثله أحمد/بيدرو الذي نجده يسأل والده: "- أبتاه، إذا أجبرنا في يوم ما على الاختيار بين العقيدة وبين أرضنا، أيهما سنختار؟

- العقيدة، يا بني. العقيدة أكثر أهمية من الأرض بالنسبة للمسلم. حين نفقد العقيدة لا يعود للحياة معنى. حين نفقد الأرض ونحافظ على العقيدة فالأمل يبقى في استعادة الأرض"[11] إن هذا الإحساس بالاغتراب والتشظي الذاتوي هو الذي قاد أحمد إلى طرح هذا السؤال الجوهري الذي ستُحدّد إجابته الصارمة والقطعية فيما بعد مساره الكبير الذي اختار فيه العقيدة على الأرض.

أما النوع الثاني من الاغتراب المفضي إلى التشظي فتمثله زهرة/إيناس أخت أحمد/بيدرو التي أصبحت هويتها الأصلية تشكل ضغطا نفسيا بحيث تضاءل الإحساس بالانتماء بل تحول إلى عبء نتيجة تراجع هامش الحرية بل انتفائها، ومن هنا تبدأ المساءلة الجوهرية عبر هز اليقينيات وخلخلتها، وهذا ما نستشفه من الحوار الذي دار بينها وبين أخيها أحمد. تقول: "لدي رغبة في أن أقول لك أمرا يا أحمد، لكن عدني بأن تحتفظ بالسر. اعترتني رعشة وتظاهرت برباطة الجأش.

- أعدك يا زهرة.

- طيب يا بيدرو أو يا أحمد -كما تريد- أنا متعبة من العيش مسلمة في داخل البيت ومسيحية في الخارج. في يوم ما سينكشف الأمر.

-ليس لنا خيار في هذا الوضع يا زهرة. لقد أجبرنا على ذلك.

كررتُ في الو اقع ما كان أبي يقوله [لي]. عقّبت:

- الأمر مرهق مع طول الزمن.

واصلت:

- حين كانت قشتالة مسلمة كنّا مسلمين. والآن... ثم توقفت.

- ماذا تقصدين يا زهرة؟ سألت.

- هذا ما أريد أن أصل إليه يا بيدرو. أنا مسيحية لأن إسبانيا مسيحية."[12]

إن هذا الحوار يضعنا أمام نموذجين مختلفين من التشظي المتأرجح بين الجبر والاختيار، اختيار العقيدة وفقدان الأرض أو اختيار الأرض وترك العقيدة. فإذا كانت إيناس قد اختارت الأرض عكس والدها الذي اختار العقيدة فإن أحمد بقي معلّقا بين العقيدة والأرض يقول: "هدّني الضنى بين كائنين عزيزين عليّ اختارا خيارين متقابلين.. أبي انحاز إلى العقيدة وأختي اختارت الأرض. لم أكن أريد فقدان أيا منهما. كنت أحس بأنني قريب من أبي باعتباره أبي، ولما يمثّله اختياره الذي كان تماهيا مع شعبه المضطهد. كنت أتألم في صمت"[13] إن هذا الألم الصامت ناجم عن المفارقة القائمة على ضرورة الاختيار. ويزداد الألم حدة بعد وفاة شقيقته وهنا تبدأ المساءلة المؤلمة. يقول: "بدأ الخوري عظته بالحديث عن الملاك إيناس التي حلقت روحها إلى الرب. كانت لدي رغبة في مقاطعته والقول له بأنه شريك في مقتل زهرة. فالهمجية التي شوهتها ليست مفصولة عن الهمجية المسيحية. كنت أنا أيضا متواطئا لكنني لم أكن وحدي. حتى أبي مسؤول عما وقع. **لماذا أراد أن يثقل كاهلينا الغضّين بهذا الحمل الثقيل: حمل ذاكرة مثقلة بالمآسي والحفاظ عليها في وجه العواصف الهوجاء وسط جو مليء بالريبة والكراهية. وهو لعمري عبء فوق طاقة زهرة. وأبي كان مسؤولا والكل مسؤول. الفرايلة، الشرطة، الملك**"[14]. إن هذا السؤال المؤلم لا يروم البحث عن إجابة بقدر ما يصف حالا صعبة ومؤلمة كما أنّه يشكل إدانة واضحة للهمجية المسيحية فتقرر الذات –بشكل حاسم- اختيار العقيدة والانحياز لها واستغلال هذه الذاكرة المثقلة بالمآسي لتصبح رافدا لفعل الإنجاز الكتابي في نوع من الانتصار للهوية المغتصبة.

ثالثا- منفى اللغة/ اغتراب الذات:

لطالما كانت اللغة بيت الوجود لأصحابها والمتكلمين بها، إذ بها يتواصلون وبها يعبرون عن أفكارهم وعقائدهم ووجدانهم ووجودهم. ويذهب الدارسون إلى الجزم بأن "اللغة العربية هي مناط شخصية العرب الحضارية ووعاء قيمهم الخالدة، ومستقرّ إبداعهم وقوام ثقافتهم. فاللغة في الأساس منهج فكر وطريقة نظر وأسلوب تصور"[15]؛ وعليه تصبح اللغة طريقة في الحياة ومنهجا في الوجود وأي مساس بها هو مساس بهذا الوجود وتخريب لهذا النمط الحياتي.

وقد كانت اللغة العربية عند الموريسكيين بمثابة المقدّس الذي يؤمّن لهم الاتصال الثقافي بأصلهم التاريخي، وهذا ما وعاه القشتاليون الذين أدركوا أهمية اللغة في تعزيز الهوية؛ لذا فقد تمّ تجريم تعلم اللغة العربية أو التحدث بها فقد "أصدر فيليب الثاني ملك إسبانيا أمرا ملكيا في عام 1567، يجبر [الموريسكيين] "المسلمون الذين بقوا في إسبانيا" على ترك استخدام اللغة العربية في جميع المناسبات، والأحوال الرسمية وغير الرسمية، كلاما وكتابة، حيث اعتبر استخدام العربية جريمة، وأعطى المسلمين مهلة ثلاث سنوات لتعلم اللغة الإسبانية، بعدها تم التخلص من كل المواد المكتوبة باللغة العربية"[16]. إن هذا القرار ينبئ عن الوعي العميق لدى المسيحيين/الكنيسة بدور اللغة في تأمين الحصن الثقافي الهوياتي؛ فقد أدركوا أنّ كل محاولة لتنصير الموريسكيين مع الإبقاء على اللغة العربية هي من قبيل المستحيل، إن هذا الوعي هو الذي أفضى إلى إصدار هذا القرار المجحف الذي أفضى –بدوره- إلى خلق جيل متململ لم يحسّ يوما بأنه ينتمي إلى الثقافة المسيحية التي فرضت عليه فرضا كما أنه أصبح بعيدا عن ثقافته الأم.

وفي هذه اللحظة المأزومة تاريخيا التي أحسّ فيها الموريسكيون بالتشظي في مواجهة العالم المسيحي المختلف عنهم ثقافيا اختار كثير منهم التمسك باللغة العربية رغم تجريم تعلمها أو التحدث بها؛ لذا كان يتم تعليمها وتعلمها سرا لأنهم أدركوا أهميتها في تأمين هويتهم في هذه المرحلة التاريخية الحرجة ذلك أنّ "المرء لا يدرك أهمية هويته، إلا في لحظة مأزومة، يواجه فيها المختلف. عندئذ يرتدّ إلى مكوناته الأصلية، التي تمنحه الإحساس بوجوده، أي بتميزه واختلافه عن الآخر، فيحس بضرورة الحفاظ على هده المكونات، مهما كانت التحديات! إذ كلما احتدت المواجهة مع الغير، زاد المرء تمسكا بمكونات هويته وخصوصيته. حتى تكاد تكون أناه وهذه المكونات شيئا واحدا"[17] وهذا التمسك باللغة نلفيه في الرواية عند الفقيه قاسم وولده أحمد فيما بعد فرغم الخطر المحدق بمتعلم اللغة العربية والتهمة الجاهزة التي تنتظره أصر الوالد وولده على التمسك بهذا الخيط الوثيق والحبل المتين الذي يمثل بيت الوجود ودونه تتربك الهوية وتضطرب الذات.

ولكن رغم التمسك بتعلم اللغة العربية كان الخوف من اكتشاف امتلاك هذا الحرف الشيطاني في نظر الكنيسة يمثل هاجسا لأحمد/ بيدرو، وهذا ما نستجليه من هذا النص الذي اكتشف فيه الأساقفة إتقانه للغة العربية, يقول: "أشار على خافيس بإعطائي كتاب الإدريسي فاستجاب بدون تردد. أمرني الأسقف بالقراءة فتسارع خفقان قلبي. رددت مع نفسي بأن أيّامي معدودة. أوقفني: - اتبعني"[18] إن التخلّص من هذه الورطة لم يكن أحمد لينجو منها إلا بالحيلة والمراوغة، يقول: "توجّه إلي بالسؤال: - قال لي مانولو بأنك تقرأ العربية. -أبتِ، أنا من قرية الحجر حيث ماوال النّاس يتكلّمون العربية، وقد تعلّمتها ببلنسية على يد طبيب يجيدها.

كنت أكذب. فلم يعلّمني أحد العربية غير والدي"[19] إن هذا الخوف ليس نوعا من أنواع الخنوع بل هو استجابة مبررة، فمن الطبيعي أن تتخذ الذّات وضعا دفاعيا تجاه ما يهدد وجودها، وهذا ما فعله بيدرو بفطرته ووعيه التاريخي الذي تحقّق بفضل اتصاله المباشر بمنابع الهوية ومنها اللغة العربية. إن هذا الوعي ينتفي عند شخصيات أخرى فقدت اتصالها الوثيق بثقافتها فأصبحت مضطربة في قراراتها الحاسمة، وهذا ما نلمحه في شخصية خايمي التي تبدي توجسها من الهجرة إلى العدوة المغربية رغم ما عانته هذه الأخيرة في قشتالة المسيحية، يقول أحمد: "أصبحت قرية الحجر بدون روح منذ مقتل زهرة ومنذ موت والدي. فاتحت خايمي في مشروع الهجرة إلى المغرب، فنظر إليّ في ذهول. قلت له:

- أنا مسلم يا خايمي ولا يمكنني أن أخفي ذلك منذ وفاة زهرة ووفاة أبي. لا يمكنني العيش هنا دون أن أعرّض نفسي للخطر.

- لكنني أنا لست مسلما، يا بيدرو، إنني لا أعرف من أكون في واقع الأمر.

- مسيحي جديد مما يعني مسيحيا سيئا.

- أنت على حق، مسيحي جديد أو مسلم، الأمر سيّان، الفرايلة لا يحبونهم.

- قررت أن أرحل وفضّلت أن أخبرك أني...

- **إنني لا أعرف شيئا عن الإسلام ولا أتقن العربية.**

- وماذا ستفعل هنا؟ لا يمكنك أن تصير جنديا، والشغل في الفلاحة شاق وبلا جدوى.

- إنك على صواب. الجندية وفلح الأرض كلاهما عمل شاق وبدون جدوى، لكن الحياة في إفريقيا أمر عسير يا بيدرو..

- إلى أين تريد أن ترحل إذن؟ إلى أمريكا؟
- هذا صحيح إنهم لن يتركوني أرحل إلى هناك. طيّب، يا بيدرو، أريد مهلة للتفكير. أنا أحبّ بلدي الأندلس.
- أنا أيضا يا خايمي، أحبّها لكنّها لم تعد تقبل بنا"[20]

إن هذا المقطع الحواري يكشف لنا نموذجين مختلفين من الأقلية الموريسكية، بيدرو المسلم الواثق الذي حسم أمره بشأن مغادرة الأندلس وخايمي المتململ والحائر الذي لم يعد يعرف من هو؟ خايمي الذي لا يعرف عن الإسلام والعربية شيئا كما أن الكنيسة تسمه بوسم المسيحي الجديد ما يعني وصما عرقيا يتبعه وصم اجتماعي يمنعه من المطالبة بأبسط الحقوق. إن هذه المفارقة القائمة على ثنائية الثقة والحيرة متعلقة بالأساس بمدى صلة الشخصيات بمقومات الهوية فكلما كان الحبل موصولا كانت الثقة والحسم وكلما انقطعت الصلات حلّ التململ وطغت الحيرة.

رابعا- الكتابة وإعادة لملمة شظايا الذات:

تعد الكتابة شكلا من أشكال الاستمرار والخلود بما تحققه من تنافذ في الزمان والمكان؛ فهي انتصار للذات الجماعية المضطهدة التي لا تجد إزاء اغترابها سوى الكتابة ملجأ تتحصّن به لتنقل لنا وعيها التاريخي ذلك أن "كتابة الذات هي طاقة النور التي تنطلق منها الروح إلى فضاء الهوية الرحب، بل هي المرآة التي تتيح للروح إمكانية فريدة من نوعها؛ أن لا تظلّ سجينة جوانيتها؛ ومن ثمّ تبدو رحلة هذه الذات رحلة إلى الداخل، أو هي عودة إلى الذات في اتجاه عكسي... أي نحو الماضي الذي عاشته، وما الكتابة هنا إلا لتأكيد حق الذات في الاختلاف عبر التمركز حول "الأنا" أو الحملقة في مرآة الذات"[21] بعيدا عن الحصار الذي يفرضه الآخر على هذه الذات، وعليه تصبح الكتابة نوعا من المكاشفة الحرة والصادقة الباحثة عن الحقيقة، وهذا ما وعاه بطل الرواية الذي اختار الكتابة بوصفها فعلا إنجازيا لكي ينتصر للسان المنهوب؛ يقول: "كنت أجد العزاء في وعيي التاريخي، وأجد فيه بعض الرضا الشخصي الذي يعصمني من الوقوع في سفاسف الأمور والابتذال. نعم أنا مطوق بدين تجاه جماعتي، وأشعر بواجب الإدلاء بالشهادة حول مأساتهم، مثلما أجد في هذا عزاء لي رغم أن الشكّ يساورني من حين لآخر. أذكر روديس، رجل الفعل والعمل، الذي كان يقول لي بأنّ الذاكرة هي حافز الفعل. لا أعرف هل هذا صحيح، لكنني أريد أن أصدّق بأنّه كذلك"[22].

إن الكتابة وعي ومحركها هو الذاكرة التي تعد المنبع الذي يرفد الذات بالمادة التاريخية الذي ترتكز عليها لتقدم للأجيال اللاحقة وعيا تاريخيا إزاء فترة مضطربة عاشتها. يقول أحمد بن قاسم الحجري معبرا عن هذا: "وهكذا ينتهي سردي الذي أردته أن يكون شهادة عن فترة مضطربة بين العدوتين، من خلال مساري. مازال صوت روديس يتردد بداخلي: في يوم ما لن نكون من هذا العالم وينبغي لأحد أن يقدّم شهادة عنا. وكان محقا.. تعرضنا للثلب من كلا الطرفين. كنّا بالنسبة للقشتاليين مسيحيين سيّئين، ونحن مسلمون سيّئون بالنسبة لبعض المورو، ولم يتح لنا، في الحالتين، أن نعبّر عن أنفسنا."[23] . إن هذه الشهادة هي نوع من الانتصار الرمزي في مقابل التشظي الواقعي الذي عاشته الأقلية الموريسكية في الأندلس وخارجها.

ونحن إذ نتحدث عن الوعي التاريخي الذي تقدمه الذات فإننا لا نجزم بالتزامها وحيادها التام في الإدلاء بشهادتها تجاه قضايا عصرها؛ ذلك أن «الارتكاز على الذات في هذه الكتابات يستبطن جدلا بين الأنا والآخر والداخل والخارج والذاتي والموضوعي. ولا تعني قوة الإحالة المرجعية في هذه الكتابات أنها منعدمة الصلة

بالتخييل. فكثيرا ما اكتسبت ذات المؤلف أبعادا نفسية ورمزية تنشأ داخل فعل الكتابة، وكثيرا ما اتسمت وقائع حياته بسمات تخييلية لم تكن لها في الواقع المرجعي التاريخي. ذلك أن الكتابة وإن جعلت همها الأول التعريف بالذات وسرد قصة حياتها، هي دائما خلق للذات وانبعاث لها جديد»[24]؛ وعليه فإن الذاكرة تتعالق مع الكتابة ليخلقا لنا وعيا تاريخيا مختلفا تنتصر في الذات لنفسها وهويتها ولسانها بعد أن وجدت نفسها محاصرة في بوتقة الصمت القاتل. وما يمكن قوله أنّ الفقيه أحمد بن قاسم الحجري صاحب رحلة "مختصر الشهاب إلى لقاء الأحباب" قد نجح في نقل هذا الصوت المخنوق بإسفاره عبر التاريخ بواسطة الكتابة ليتلقفه المعاصرون ويعيدوا كتابته تاريخيا وتخييليا إنصافا للسان أقلية تعرضت للثلب من كل الاتجاهات.

- خاتمة:

* نجح حسن أوريد عبر الاشتغال على نماذج متعددة من الشخصيات في تمثيل نماذج متفاوتة في الهشاشة والمقاومة؛ وهي نماذج تمثل انعكاسا لواقع أليم ألمّ بالأقلية الموريسكية في الأندلس وخارجها.

* تعد العقيدة واللغة مقومات أساسية لهوية الذات، وكل نفي لواحد من هذه المكونات يعصف بهوية الفرد ويؤثر على وعيه التاريخي بمقدار الاضطراب النفسي الذي يخلفه التّشظي الناجم عن النّفي والاغتراب.

* شكلت شخصية الموريسكي (أحمد بن قاسم الحجري) بوعيها التاريخي وجها من وجوه المقاومة التي جعلت من الكتابة سبيلها الأمثل للفعل والإنجاز واسترداد اللسان المنهوب ، فكانت شهادته القديمة محركا لشهادات حديثة تاريخية وتخييلية.

قائمة المصادر والمراجع:

1- أنطونيو دومينغيث أورتيث وبيرنارد فانسون، تاريخ الموريسكيين (حياة ومأساة أقلية)، تر محمد بنياية، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي.

2- حسن أوريد، الموريسكي، تر: عبد الكريم الجويطي، دار الأمان، الرباط، ط1، 2014.

3- حسن حنفي حسنين، الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2012.

4- سوسن ناجي، كتابة الذات قراءة في خطاب الهوية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، مصر، 2017.

5- صلاح فضل، ملحمة المغازي الموريسكية (دراسة في الأدب الشعبي المقارن)، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 1992.

6- عبد اللطيف محمد خليفة، دراسات في سيكولوجية الاغتراب، دار غريب، القاهرة، دط، 2003.

7- عرب 48، لغة الألخيميادو... سلاح العرب الثقافي في الأندلس، تاريخ النشر 2016/06/05 تاريخ الاطلاع 2021/01/17 https://www.arab48.com/

8- ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 2013.

9- محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، الرابطة الدولية للناشرين المستقلين، تونس، لبنان، الجزائر، مصر، المغرب، ط1، 2010.

هوامش وإحالات المقال

[1] صلاح فضل، ملحمة المغازي الموريسكية (دراسة في الأدب الشعبي المقارن)، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 1992، ص11

[2] أنطونيو دومينغيث أورتيث وبيرنارد فانسون، تاريخ الموريسكيين (حياة ومأساة أقلية)، تر محمد بنياية، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي، ط1، 2013، ص434.433

[3] المرجع نفسه، ص215

[4] المرجع نفسه، ص398

[5] عبد اللطيف محمد خليفة، دراسات في سيكولوجية الاغتراب، دار غريب، القاهرة، دط، 2003، ص59

[6] المرجع نفسه، ص107

[7] حسن أوريد، الموريسكي، تر: عبد الكريم الجويطي، دار الأمان، الرباط، ط1، 2014، ص8

[8] ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 2013، ص15

[9] حسن أوريد، الموريسكي، ص10

[10] حسن حنفي حسنين، الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2012، ص23

[11] حسن أوريد، الموريسكي، ص45

[12] المصدر نفسه، ص41

[13] المصدر نفسه، ص45

[14] المصدر نفسه، ص51

[15] عبد اللطيف محمد خليفة، دراسات في سيكولوجية الاغتراب، ص124

[16] عرب 48، لغة الألخيميادو... سلاح العرب الثقافي في الأندلس، تاريخ النشر 2016/06/05 تاريخ الاطلاع 2021/01/17 https://www.arab48.com/

[17] ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر (ناذج روائية عربية)، ص13

[18] حسن أوريد، الموريسكي، ص34

[19] المصدر نفسه، ص35

[20] المصدر نفسه، ص56.55

[21] سوسن ناجي، كتابة الذات قراءة في خطاب الهوية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، مصر، 2017، ص 5

[22] حسن أوريد، الموريسكي، ص227.226

[23] المصدر نفسه، ص247.246

[24] محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، الرابطة الدولية للناشرين المستقلين، تونس، لبنان، الجزائر، مصر، المغرب، ط1، 2010، ص354